

تأصيل العلوم الاجتماعية

عند مالك بن نبي

أ. محفوظ سماتي

جامعة الجزائر

ليس من السهل تأصيل العلوم الاجتماعية في ثقافة غير الثقافة التي أنتجتها المفاهيم تستعصي على الباحث صياغتها وإدماجها في فكر غريب عنها، وهذا ما يعانيه المثقف الذي اغترف من عرفان الثقافة الغربية، وحاول أن يصب معلوماته في ثقافته الأصلية، فيصطدم بباب موصد في وجهه، لا يجد أي منفذ إلى لغته لتلقين مجتمعه مصطلحات جديدة تحمل في طياتها العصرية والتقدم.

كثيرا ما يبوء هذا الجهد الثمين بالفشل ويأس صاحبه من اللغة الجامدة ومن المجتمع المغلق، فيحكم عليها بالتخلف الأبدي وعدم صلاحها للسعي وراء ركب الحضارة، وهذا الحكم المسبق يدفعه إلى التمسك أكثر بالثقافة الأجنبية التي اكتسبها لتكون له عوناً في النهوض بمجتمعه. إنها الأزمة التي يعيشها المثقف، فلا يدري أي سلوك يتبع حتى يكون مثل زميله الأوروبي في الدراسة. ويسوق لنا مالك بن نبي هذا المثل ليبين لنا أن المشكل بين الرجلين مشكل فعالية: *efficacité* لقد زاول الإثنين دراستهما في جامعة واحدة، وتحت إشراف نفس الأستاذ، لكن التلميذ الأوروبي يستخدم ثقافته

لصالح أمته فيزيدها نموا وتزيده اتصالا بأعماقها، أما التلميذ المسلم فإنه لم يأخذ من الثقافة الأوروبية إلاّ الجانب البراق، فلا يدري كيف وصل الغرب إلى هذا المستوى الحضاري وكيف تعاون الراعي والفلاح والتاجر والحرفي ورب المال والعامل والطالب والأستاذ والعالم لبناء مجتمع منسجم، متكامل كل حجر فيه يدعم الآخر. والثقافة في هذا الوسط الاجتماعي لا تكتسب لنيل المناصب والوظائف، وإنما هي تحفة وزينة لا يقدم عليها إلاّ من هو خليق لها.

ونجد المثقف المسلم يجري وراء الوظائف مستخدما علمه للظهور والامتياز، فدوره غير فعال وعدم الفعالية أو l'inefficacité هو داء المجتمع المتخلف، وقلة الوعي فيه من العوائق التي تعترض مسيرته. ويضرب مال بن نبي لنا مثلا باليهود في الجزائر أثناء الحرب العالمية الثانية حينما أخرجت أطفالهم من المدارس العمومية "أصبح كل يهودي معلما" لهؤلاء الأطفال وانقلبت البيوت إلى مدارس وبهذا العمل الجماعي لم يضع أبناء اليهود سنوات الدراسة.

ويستبشر خيرا بن نبي حينما شاهد الأطباء المسلمين بقسنطينة يخصصون يوما في الأسبوع لمعالجة المرضى الفقراء، فكان يرى في ذلك تعاونا في المجتمع وفعالية تكسو حركيته - إنه الرجوع إلى الأخوة الإسلامية والتكافل الذي عرفه مجتمعا. فلا بد من رسم طريق الفكرة الإسلامية الصافية التي تخطط للمستقبل بطريقة إيجابية. وهذا العمل نفسه، يقول ابن نبي واصلة النهضة الإسلامية، "فإن ربح الإصلاح التي هبت على العالم الإسلامي منذ محمد عبده وتلامذته كابن باديس، بشائر ذلك التمديد السلمي الذي حاول تحطيم عللنا وعوامل انحطاطنا".

"ولكن الدوائر الأزهرية والزيتونة لم تعبأ بتلك المحاولة من قبل محمد عبده وتلامذته ولم تستطع أن تتصور أحيانا النتائج التي تقتضيها

الحركة الإصلاحية، وهو أمر يعود بلا شك إلى ما في أنفسنا من وطأة شديدة الانحطاط"¹. وإن كان من اللازم تصفية تراثنا للقيام بحركة نهضوية قوية فلا يجدر بنا أن نتلخص من الماضي بطريقة عفوية وبدون منهج وخطة، فلا بد من تحديد العناصر الجوهرية التي يحتويها برنامجنا ليكون البناء قائما على جذر تعكس أصالتنا وعليها تجري عملية التكديس. وكان مالك ابن نبي يحث لأنها من شروط الثروة الثقافية والحضارية. فبدون تكديس لا نحقق تقدما ملموسا ولا ندفع بالمجتمع إلى التغيير. فالتكديس هو الذي يعطي رأس المال معانيه المختلفة. إن الأفكار إذا تلاقحت تلحق بعضها بعضا وتعود على المجتمع بالازدهار. فالعلاقات الاجتماعية تنمو بالتوصيل فإذا انقطع هذا الغذاء الذي يعطي للفرد حيوية وشخصيته الأساسية، يصبح هذا الأخير عرضة للاستلاب. فالتفكيك الاجتماعي ينزع من الفرد والجماعة القدرة على الدفاع والقوة على المقاومة فيذعنان إلى التبعية وإلى القابلية للاستعمار. فهناك عدة عوامل نفسية واجتماعية أعدت لهما لينساقا وراء ضغوطات واقعية وأحيانا وهمية كما كان يقول ماوتسي تونغ "إن الرأسمالية نمر مصنوع من ورق" لكن ابن نبي لا يقلل من شأن الاستعمار فإياه ساكننا في نفوسنا ومتحكما في إرادتنا فالخلاص منه عسير ولا بد من جد وجهد وحكمة لإبعاده فينبهنا "إن القضية عندنا منوطة أولا بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر أو لا نشعر ومادام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين (أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم)².

¹ . مالك بن نبي: مشكلة الثقافة "مكتبة دار العروبة، مصر.

² . مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط.3، بيروت 1969، ص.233.

بعض المراجع

- الظاهر القرآنية
- شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر بيروت.
- مشكلة الثقافة شاهين
- ميلاد مجتمع
- فكرة الإفريقية الآسيوية.